بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة
هوس التقدم و التطور

التطور.. التقدم .. التغيير .. شعار النخبة الثقافية .. بل دينها وديدنها!

ومعه وفيه شعارات الحداثة والمعاصرة .. وضده كل قبيح منبوذ كريه.. الثبات والإطلاق والخلود.

وإن شئت أن تسعد نفساً، أو تطرب قلباً، أو تستميل عقلاً فصف صاحبه بالتطور أو انْعته بالتقدم. أما إن أردت أن تهين كاتباً أو تنفر من مذهب فَاعْمد إلى الثبات فَالْصِقْه به!

ولقد بلغ الهوس بأحدهم حد القول إن الله هو التقدم!!!

وهكذا هو الشأن فى الدول أيضاً. فدول العالم تُصنَّف على أساس التطور: أرْفَعُهنَّ المتطورة developed ووسطاهن التى تسير فى طريق التطور، developing وأحطُّهن غير المتطورة undeveloped .

وتأمل عنوانات المؤسسات وأسماء الأحزاب والصحف تجدها تتبارى فى التسمى بالمتطورة، والتقدمية، والحديثة، والمعاصرة، والجديدة.

وهذا كله تقليد بحت، غير نقدى، للتوجهات التطورية الأوربية.

وقد نشرت مئات الكتب وآلاف المقالات وانعقدت عشرات المؤتمرات للحديث عن التطور والحداثة والتجديد.

وانقسم العالم الإسلامى كله إلى أنصار للتطور، وأنصار للإسلام الذى ألْصقوا به وَصْمَةَ الجمود والتحجر لأنه يتبنى ثوابت مطلقة خالدة!

ولقد مددوا نطاق التطور لكى يشمل كل شيء:

من الحياة الحيوانية (كما هو أصل نظرية دارون)،

إلى الحياة الإنسانية،

والمجتمع البشرى وتركيبه،

والعلاقات الاجتماعية بين الأفراد والطبقات،

والنظم السياسية والاقتصادية والتربوية،

والمبادئ التشريعية والقيم الأخلاقية،

والأدوات والوسائل التقنية، والعلوم المادية والإنسانية.

وقد ظن البعض أن مذهب التطور الشامل هذا لا علاقة له بالدين. وهذا خطأ. ويكفى أن نذكر أن نظرية التطور تناقض ما جاء فى الإسلام عن خلق الإنسان. والثقافة الإسلامية تُعتبر عندهم ثقافة منحطة على سلم التطور!

فإما التطور وإما الفناء ولا خيار أمام المسلمين سوى هذا!

مقولة رددها تطوريون عديدون فى الشرق والغرْب. من ذلك مثلاً قول "هاملتون جيب"، المستشرق الإنجليزى الكبير إن: "الإسلام ليس له أى مستقبل، لأنه لم يظهر أية قدرة على التكيف مع الأفكار الجديدة."

و"الأفكار الجديدة" هى الفلسفات الأوربية الحديثة، العلمانية، المادية. فإذا تكيف معها الإسلام، كان على المسلمين أن يستبدلوا المرجعية العلمانية، وهى الخبرة البشرية، بالمرجعية الإسلامية وهى القرآن والسُّنة. وبهذا يُنبذ الإسلام شيئاً فشيئاً حتى يتم هجره، ثم فناؤه، ويصبح تاريخاً أو تراثاً لا صلة له بالحياة.

فالإسلام – على هذا– ليس له مستقبل سواء تكيف مع الأفكار الجديدة أو لم يتكيف! لكن "جيب" وأمثاله يُوحون للمسلمين بأن الإسلام يمكن أن يعيش إذا هو ساير الفكر الأوربى. ومن المؤسف أن أعداداً من أبناء المسلمين صدقوا مقولة "جيب"

وروَّجوا لها تحت اسم الحداثة والتطور والتغيير والتقدم والتحرر من التقاليد. غير أنه بعد مرور أكثر من نصف قرن على مزاعم الفناء، لم تظهر الأعراض الدالة على الفناء على الأمة المسلمة؛ وإنما حدث العكس، فنهضت الأمة المسلمة واستردت استقلالها، وشرعت تتقارب شعوبها، وتشكل المنظمات الإسلامية الوحدوية. وازدهر التديُّن، وأقبل المسلمون على دينهم إقبالاً عظيماً؛ وفى الوقت نفسه ظهرت أمارات الضعف على "الأفكار الجديدة"، أعنى الثقافة الغربية، باعتراف الأوربيين أنفسهم، ولم يعد "الغرب" مثالاً يحتذى.

– لكن كُتَّاباً عديدين عندنا لا يزالون يروجون لفكرة مسايرة الغرب؛ ولا يزال الغرب أيضاً يروج للفكرة نفسها، فالنظم السياسية والاجتماعية والاقتصادية والأخلاقية يجب أن تساير النظم الغربية. والمسلمون رجالاً ونساءً يجب أن يسايروا الغربيين فى كل شىء؛ بما فى ذلك أنواع الطعام والشراب، ناهيك عن العادات والتقاليد والأزياء واللغة والتقويم والفنون والآداب .. وكل شىء.

و"التطور" هو أصلح لفظ نضع تحته مجموعة المشكلات التى تضم: التغير والثبات، والنسبية والإطلاق، والإبدال والإحلال، والجمود والمرونة، والصلاحية لكل زمان ومكان. وكل القضايا التى من هذا القبيل، لكن العلمانيين اختاروا عبارة: "تطوير الخطاب الديني" عنوانًا لحملتهم الإعلامية المضللة للتنصل من الإسلام.

وقد عولجت هذه القضايا من قبل فى مؤلفات عديدة، كتبها إسلاميون وعلمانيون. غير أن جوانب معينة لم تمس. وهذا هو الجديد الذى أرجو أن أعرضه فى هذا الكتاب. لكن هذا لا يسوغ لنا أن نُغفل جهود السابقين، فنكون كمن يريد إعادة اختراع البارود! ولهذا سوف أعرض لتلك الجهود، أو لأهمها، للاستفادة منها، لدى العلمانيين ولدى الإسلاميين. وهذا لا يعنى أننى أؤرخ للمسألة؛ فالغاية من هذا الكتاب هى تمديد نطاق البحث إلى جوانب واسعة، جديدة، للكشف عن المتطور والثابت فى العبادات والمعاملات الإسلامية. وهذه الجوانب لم يمسها التنقيب بهذا المنهج ولهذه الغاية. وهذا اعتذار مسبق عن الأخطاء المحتملة، لا ادعاء لريادة مشكوك فيها.